٤٧

مغامرة زهرة مع الشجرة

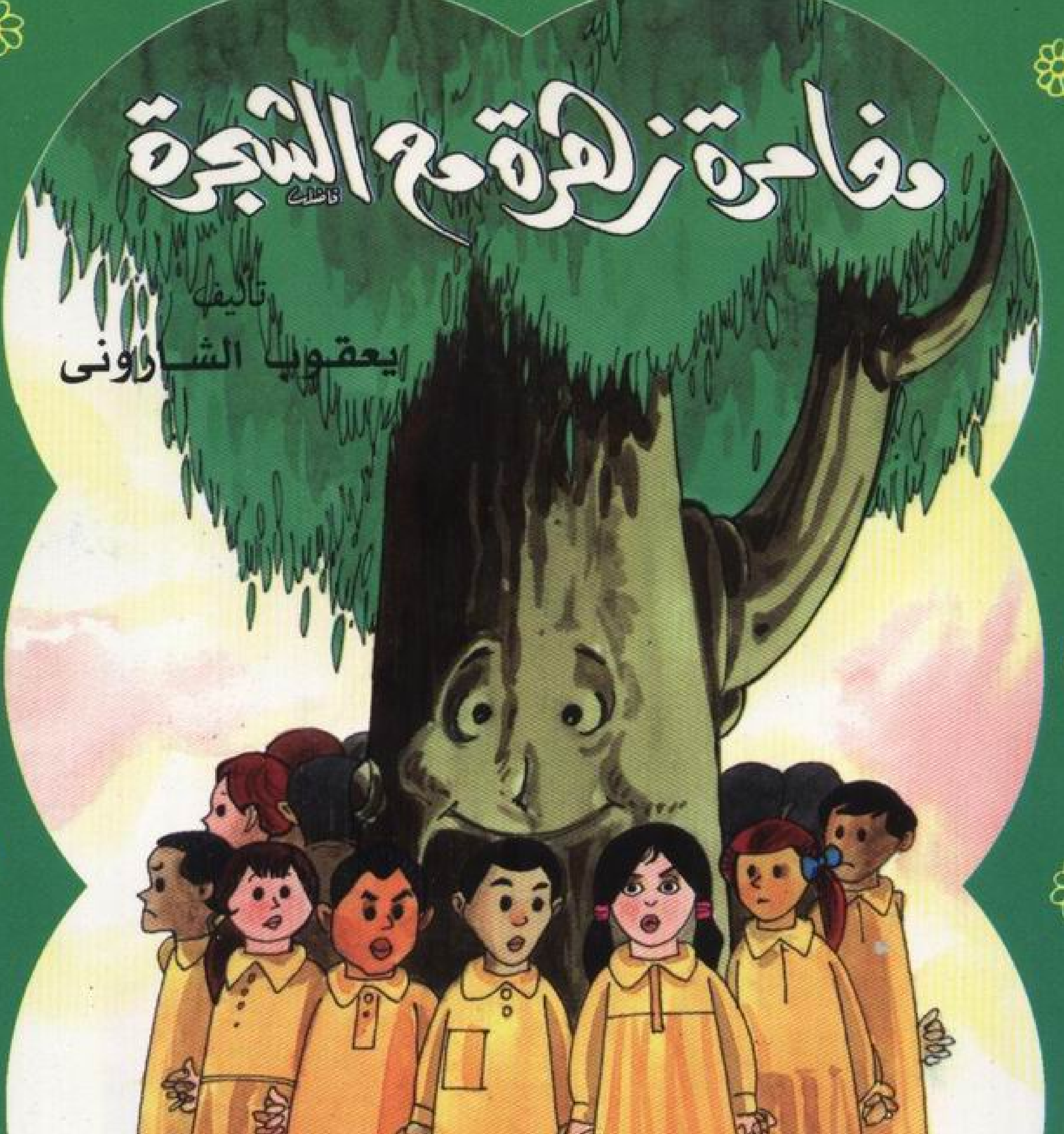
تأليف

المكتبة الخضراء للأطفال

٤٧

مغامرة زهرة مع الشجرة

تأليف
يعقوب الشارونى



رسوم
عبد الرحمن نور الدين

دار المعارف

المكتبة الخضراء للأطفال

٤٧

مغامرة زهرة مع الشجرة

تأليف

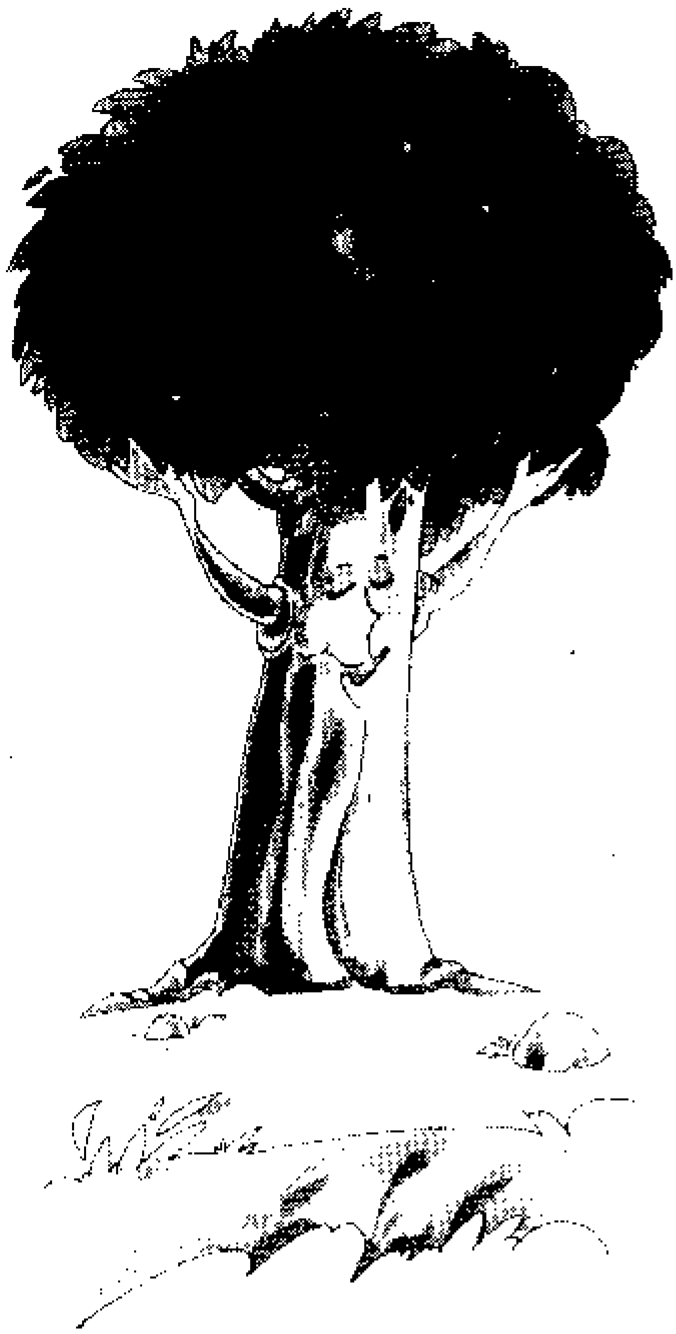
يعقوب الشاروني



رسوم : عبد الرحمن نور الدين

الطبعة الرابعة

دار المعارف



اعتادَتْ شجرةُ الظلِّ الشابةُ ، أن تتأمَّلَ ذلك الجُرْحَ المُتّسِعَ ، الذى يشقُّ جانبًا عميقًا من جِذْعِ جارتها ، شجرةِ الكافورِ العجوزِ ، التى تقفُ أمامَ بابِ « مدرسة الاجتهاد » .

وتَملَّكَها حبُّ الاستطلاعِ ، فلم تستطعْ مَنْعَ نفسِها ذاتَ صباحٍ ، من أن تميلَ بأحدِ أغصانِها تتحسَّسُ ذلك الجُرْحَ ، وهى تسألُ جارتَها فى اهتمامٍ :

« كيف أصابَكِ هذا الجُرْحُ العميقُ ، الذى يُشوِّهُ قامتَكِ العاليةَ ؟ » .

وتنهَّدَتِ الشجرةُ العجوزُ معَ الريحِ ، وهى تُجيبُ فى لهجةٍ يُخالِطُها كثيرٌ من الألمِ :

« لولا هذا الجُرْحُ ، لما زرعوكِ ، ولما اهتمَّ أحدٌ بميلادِكِ أو حياتِكِ ! » .

وفوجِئَتِ الشجرةُ الشابةُ بتلك الإجابةِ التى لم تكُنْ تتوقَّعُها ، فصاحَتْ : « هذه أولُ مرةٍ أسمعُ فيها أن ولادةَ شجرةٍ شابةٍ مثلى ،

جاءَتْ نتيجة إصابةِ شجرةٍ عجوزٍ مثلِكِ ، بهذا الجرحِ الذى كانَ يُمكِنُ أن يكونَ قاتلاً ! » .

قالَتِ الشجرةُ العجوزُ لجارتِها الشابةِ : « ضعى نفسَكِ فى مكانى .. أقضى من عمرى ثلاثينَ عامًا ، أُقدِّمُ الظلَّ للأطفالِ والحيواناتِ ، وتُحافِظُ جُذورى على شاطئِ الترعةِ مُتماسِكًا قويًا ، وأعملُ على تنقيةِ الهواءِ ، ثم أُفاجَأُ ذاتَ صباحٍ ، وعلى غَيْرِ انتظارٍ ، باثنَيْنِ ، رجلٍ وصبىٍّ ، يتعاونانِ على قتلى . فوجِئْتُ بهما يتوقَّفانِ بجوارى ، ثم تناوَلَ كلٌّ واحدٍ منهما طرفًا من طرفَىْ مِنْشارٍ رهيبٍ ، وسدَّدا أسنانَهُ المُفترِسةَ نحو جذعى .. ثم بدأَتِ المذبحةُ !! » .

صاحَتْ شجرةُ الظلِّ الصبيةُ فى فَزَعٍ : « مذبحةٌ ؟! هل يذبحُ الإنسانُ الأشجارَ أيضًا ؟! » .

وفى صوتٍ يُخالِطُهُ الألمُ ، أكملَتْ شجرةُ الكافورِ حكايَتَها .. قالَتْ :

« جعلَنى الفزعُ أتوقَّفُ عن امتصاصِ عصارتى ، وسرَى الألمُ حتى وصلَ إلى أطرافِ أغصانى ، وبدأَتْ أوراقى ترتعشُ ، فقد كانَتْ أسنانُ المنشارِ حادَّةً رهيبةً ، تغوصُ بغَيْرِ شفقةٍ فى لحمى ، والمنشارُ يذهبُ ويجىءُ بقسوةٍ ، فيزدادُ الجُرْحُ عمقًا فى جِذْعى » .

« أرادوا قتلى كما كانوا يقتلونَ المحكومَ عليهم بالإعدامِ منذُ بضعِ مئاتٍ من السنينَ ، مُستخدمينَ طريقةً بَشِعَةً ، عندما كانوا يقسمونهم من وسطِهم بالمِنْشارِ ، وهو ما سمعْتُهُ يومًا من رجلَيْنِ جلسا تحتى ، يستمتعانِ بظلِّى » .

« وبعد دقائقَ حافلةٍ بالألمِ والرُّعْبِ ، توَقَّفَ الصبىُّ ، وتركَ ذراعَ المنشارِ ، ونظرَ فى كفَّيْهِ ، ثم قالَ لزميلِهِ : عمٌّ أحمدُ يا نشَّارُ ، لقد تعبْتُ ! » .



« واضطُرَّ أحمدُ النشَّارُ أن يستجيبَ لرغبةِ الصبيِّ ، وتوَقَّفَ لحظاتٍ عن نهشِ لحمي بمنشارِهِ الذي اشتدَّتْ حرارتُهُ ، فلسعَني ، بالإضافةِ إلى تمزيقِ جسمي ! » .

« وبدأ النشَّارُ يمسحُ بأصابعِهِ قطراتِ العرقِ من على جبينِهِ ، وقد تركَ سلاحَ منشارِهِ الطويلِ داخلَ جُرْحي العميق » .

قالَتِ الشجرةُ الشابَّةُ وأغصانُها وأوراقُها ترتجفُ : « لقد بدأْتُ أنا نفسي أرتعدُ ، لُمجرَّدِ سماعِ هذا الذي حدثَ لكِ . لا أستطيعُ أن أتخيَّلَ كيف نَجَوْتِ ! » .

* * *

قالت الشجرةُ العجوزُ :

« وأثناءَ توقُّفِ الرجلِ والصبيِّ ، خرجَتْ فجأة عاصفةُ غبارٍ هائلةٌ من بابِ مدرسةِ الاجتهادِ ، الذي نراه الآنَ أمامَنا » .

« ثم اقتربَتِ العاصفةُ بسرعةٍ ناحيَتي ، وانتشرَتْ حولي ، والتصقَ بي مَنْ كانوا بداخلِها » .

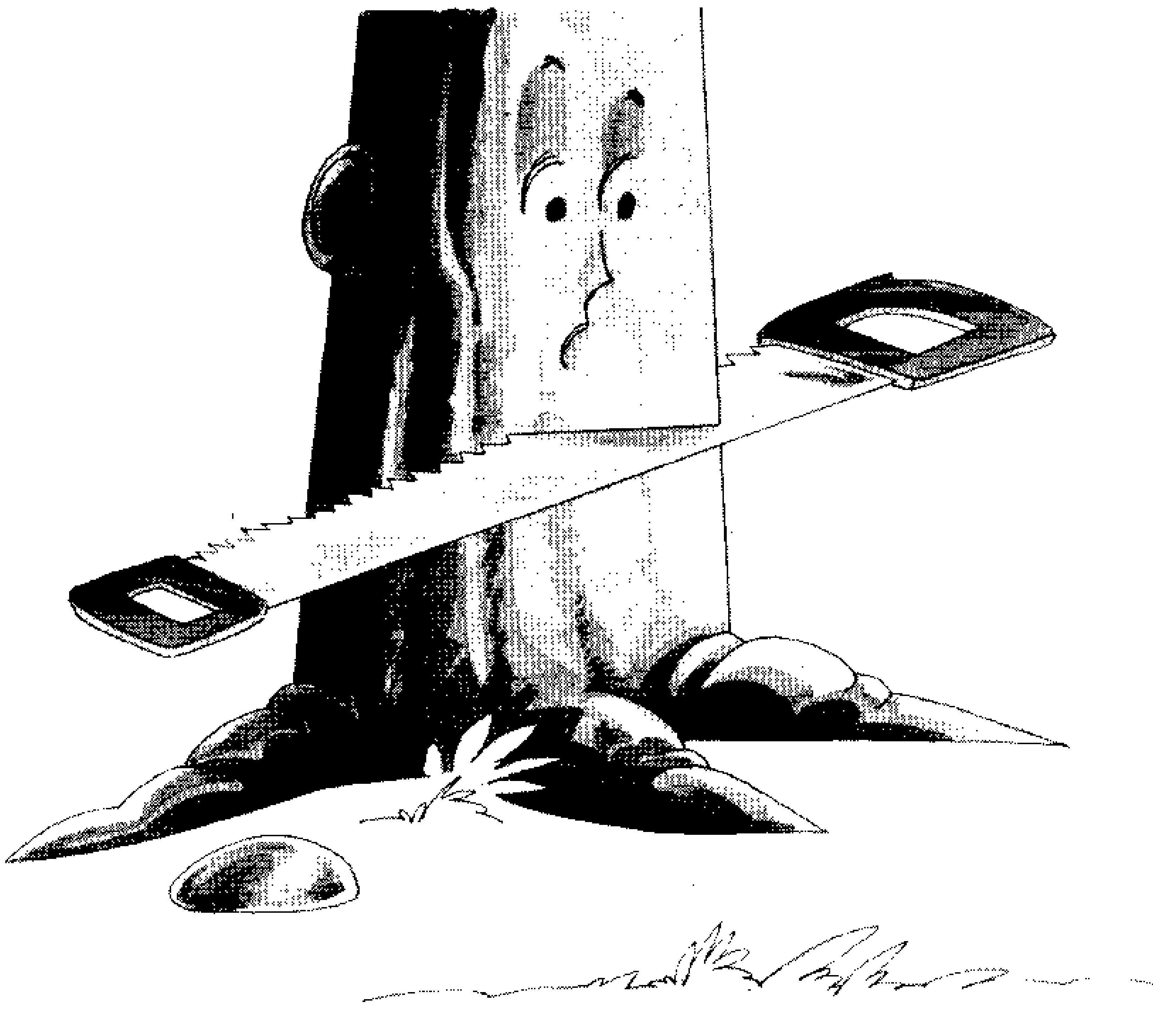
« وفي البدايةِ ، لم يفهمْ أحمدُ النشَّارُ وصبيُّه ماذا حدثَ ، لكنهما عرفا بوضوحٍ أنه لم يعُدْ في استطاعتِهما العودةُ إلى الإمساكِ بالمنشارِ ولا تحريكُهُ ، فقد أصبحَ هناك حاجزٌ بشريٌّ بينَهما وبيني ! » .

« عندئذٍ توقَّفَ ارتعاشُ أوراقي ، وعدْتُ إلى امتصاصِ عُصارتي ، وأنا غَيْرُ مُصدِّقَةٍ نفسي ! » .

وسَيْطَرَ حبُّ استطلاعٍ قويٌّ على الشجرةِ الشابةِ ، فسألَتْ في لهفةٍ : « وماذا كانَتْ حقيقةُ تلك العاصفةِ ، التي أوقفَتِ المُعتدينَ عليك ؟ » .

قالَتِ الشجرةُ العجوزُ : « عندما بدأ الغبارُ يهدأ ، لم يصدِّقْ أحمدُ النشَّارُ عينَيْهِ . كانَ هناك عددٌ كبيرٌ من الصبيانِ والبناتِ من تلاميذِ المدرسةِ ، قد أحاطوا بجذعي الشديدِ الضخامةِ ، وقد أمسكَ كلُّ واحدٍ منهم بكفِّ الآخرِ ، فأصبحوا حلقةً متماسكةً حولي » .

« لقد أحسسْتُ بهم يحتضنونَني ، وقد جعلوا من أنفسِهم سورًا قويًّا ، ودرعًا بشريًّا ، يمنعُ أحمدَ النشَّارَ وصبيَّهُ ، من الاقترابِ ثانيةً نحو جذعي الكبيرِ » .



« ولأولِ مرَّةٍ في حياتى الطويلةِ ، أُحِسُّ بما كنْتُ أسمعُ الناسَ يتحدثونَ كثيرًا عنه : أحسسْتُ بالحبِّ ، فقد كانَتْ حرارةُ أجسامِ الأطفالِ تتسلَّلُ من صدورِهم وأذرعِهم إلى جذعى ، فأشعرُ أننى أصبحْتُ جزءًا منهم » .

صاحَ أحمدُ النشّارُ ، وهو يُصوِّبُ نظراتِه الغاضبةَ نَحْوَ الأولادِ والبناتِ : « ابتعِدْ يا ولدُ أنت وهِيَ .. العبوا في مكانٍ آخرَ ... » .

« لكنه وجدَهم جميعًا كأنهم لم يسمعوه ! وقد أحسسْتُ أنهم ازدادوا التصاقًا بى » .

وتَقدَّمَ أحمدُ النشَّارُ نحوَ الصغارِ ، ومَدَّ يَدَهُ ، وكَادَ يُمسِكُ بأحدِ الصغارِ ، لَكنَّه تَراجَعَ فورًا عندما تَنبَّهَ أنها فتاةٌ . كَانَ الأولادُ يُنادونَها باسمِ « زهرة » . تَبلغُ من العمرِ الثَّانِيَةَ عشرةَ ، وإن كانَتْ قَامتُها أَطْوَلَ كثيرًا من سِنِّها .

وعَادَ أحمدُ النشَّارُ يُمسكُ كَتِفَ صبِيٍّ ، ويَهُزُّهُ في عُنْفٍ وهَو يَقولُ : « نُريدُ أَنْ نُكمِلَ شُغلَنَا » .

وفى جُرْأةٍ قَالَتِ الفتاةُ « زهرةُ » : « لن تُكمِلوا أىَّ شُغْلٍ !! » .

قالَ عمّ أحمدُ النشَّارُ لنفسِهِ وهُوَ لا يُصدِّقُ مَا سَمعَ : « ما هَذا الَّذى يَقولُهُ الصغارُ ويفعلونَهُ ؟! ولماذا تمنعُنى زهرةُ هذه من العملِ ؟! هذا معناهُ أَنَّهُ لَن يَكونَ هُنَاكَ شغلٌ اليَوْمَ ، وأننى لنَ آخذَ أجرى » .

أمَّا الصبىُّ ، فقد سَألَ أقربَ تلميذٍ ممن التَفُّوا حولى : « أُريدُ أَنْ أَفهمَ هَذِهِ اللُّعبةَ الجَديدةَ التى تلعبونَها » .

صَاحَتِ الفتاةُ زهرةُ ، وعَلَى وجهِهَا تَكشيرةٌ مثلُ تَكشيرةِ الكبارِ : « نَحنُ لا نلعبُ !! » .



والتفتَ إليه علوانى ، أصغرُ الصبيانِ الّذِين التفُّوا حولى ، وصاحَ فى حِدَّةٍ : « هذه الشجرةُ لن يقطعَها أحدٌ !! » .

ولم يفهمْ أحمدُ النشَّارُ معَنى هذه الصيحاتِ ، فنظرَ إلى صَبيِّهِ فى حيرةٍ ، وقَالَ : « تَعالَ ندخلُ المدرسةَ ، نُكلِّمُ الأفندية » .



ومن بابِ المدرسةِ الواسع ، دَخَل أحمدُ النشَّارُ وفى قَلبِهِ إحساسٌ بالهَمِّ ، وخَلفَهُ صبيُّهُ ، يهمسُ لنفسِهِ : « أين كانَ هؤلاءِ الأطفالُ منذُ الصباحِ ؟ لقد تورَّمَتْ يداى ! » .

وتقدَّمَ النشَّارُ بِضْعَ خُطُواتٍ فى الفناءِ الواسعِ ، ثُمَّ أبطأَ خطواتِهِ ، والتفتَ إلى صبيِّهِ الَّذى وقفَ خلفَهُ ، وسَألَهُ : « هَل خَلَتِ المدرسةُ من الأفنديةِ ؟ » .

وفجأةً لمحَ الصبىُّ شابًّا ، فأمسكَ بكوعِ عمِّ أحمدَ النشَّارِ ، واتَّجَها نحو ذلكَ الشابِّ ، والصبىُّ يقولُ : « إنه أحدُ المُدرِّسينَ ! » .

كَانَ « الأستاذُ شاكر » هو اسمَ ذلك المُدرِّسِ . وعندما شَاهدَ الرجلَ والفتى يَتقدمان نَحْوَهُ ، تَوقَّفَ ليستقبلَهما .

قَالَ الأستاذُ شَاكر للعمِّ أحمدَ : « هل أَنتَ ولِىُّ أمرِ تلميذٍ فى المدرسةِ ؟ » .



قالَ عم أحمدُ : « يا أفندى ... تَعالَ أبْعِدْ أولادَكم هؤلاءِ عن الشَّجرةِ الَّتى أمامَ المدرسةِ » .

سَألَ المدرسُ : « إنَّهم يَلعبونَ تَحتَ ظلِّهَا « الحَجْلة » و « السِّيجَة » و « نَطِّ الحبلِ » ، فلماذا نُبعِدُهم عَنهَا ؟! » .

قَالَ أحمدُ النشَّارُ : « مُنذُ ثلاثةِ

أسابيعَ ، ونَحنُ نَقطعُ الشجرَ فى بلدتِكم هذه . لقد قطَعْنا حَتّى الآنَ أربعًا وثلاثينَ شجرةً كَانَتْ فى الطريقِ من البلدِ إلى المدرسةِ ، وهَذِهِ شجرةٌ من بينِ الشجرِ الّذى نَقطَعُهُ ! » .

وعَادَ الأستاذُ شاكر يَسألُ فى استغرابٍ : « ومَنِ الّذى طَلَبَ مِنكم قَطْعَ هذه الشجرةِ ؟! المدرسةُ لم تَطلبْ ذَلِكَ ! » .

وتَردَّدَ عمُّ أحمدُ النشَّارُ مَرَّةً ثانيةً ، وغَيْظُهُ يَشتدُّ مِنْ هَذَا « الأفندى » الّذى لا يُريدُ أَنْ يَفهمَ شيئًا ، ثمَّ قَالَ وقد نَفدَ صَبرُهُ : « يَا أفندى .. نَحنُ نُنفِّذُ الأوامرَ .. المُقاولُ قَالَ لنا اقطعُوا الشجرَ ، ونَحنُ نَقطعُهُ ! » .

سَألَ الأستاذُ شاكر مرةً أُخرى : « ومَنِ الّذى طَلبَ من المقاولِ قَطْعَ الشَّجَرِ ؟! » .

هُنْا لم يَستطعْ عمّ أحمدُ النشَّارُ أَنْ يُسيطرَ عَلَى غضبهِ ، فانفجرَ صائحًا : « يا أفندى أنا عبدُ المأمورِ .. تفتيشُ الرَّىّ اتّفقَ مع المُقاولِ ! » ثم واصلَ صياحَهُ وهُوَ يَغلى من الغَيْظِ : « أَنا ذَاهبٌ إلى العُمدةِ .. أَنا ذاهبٌ إلى ضابطِ النقطةِ .. » .

ولم يَنتظرْ ليسمعَ ردًّا عَلَى صِياحِهِ ، وأَسرعَ يَقطعُ فناءَ المدرسةِ نحوَ بابِ الخروجِ ، بخطواتٍ سريعةٍ كَأنَّه يَجرى ، وصبيُّهُ يَجرى فى ذَيْلِه ، يُحاولُ أن يلحقَ بِهِ !!

« وكم أَثارَ دهشتَهما ، أَنهما وجدا مجموعةَ الأولادِ والبناتِ ، بقيادةِ الفتاةِ زهرةَ ، مَا زالوا يُحيطونَ بى أنا شجرةِ الكافورِ !! » .

* * *

فى تِلْكَ اللحظةِ ، اقتربَ « الشيخُ زيدان » بائعُ الذرةِ المشويةِ ، وهُوَ يركبُ

حمارَهُ ، قادمًا من حَقْلِهِ راجعًا إلى القريةِ ، ومعه كيسٌ قد امتلأ بكيزانِ الذُّرةِ ، يَحتضِنُهُ أمامه بذراعَيْهِ .

وعِندَما أَصبحَ أمامَ باب المدرسةِ تمامًا ، أَثارَ انتباهَهُ منظرُ الأطفالِ ، فأَوقفَ الحمارَ ، وحملقَ فى دهشةٍ عندما رأى الصغارَ يلتصقونَ بالمنشارِ الحادِّ الضخمِ !



وانتهزَ عمُّ أحمدُ النشَّارُ الفرصةَ ، واقتربَ من بائعِ الذرةِ المشويةِ ، وقَالَ له شاكيًا :

« مَنْ يتحمّلُ المسئوليةَ إذا أصابَهم المنشارُ ونحن نشتغلُ ؟!! » .

عندئذٍ التفتَ بائعُ الذرةِ إلى الأطفالِ ، وقَالَ في تأنيبٍ :

« لِماذَا لا تَتركونَ الرجلَ يُكمِلُ شُغلَهُ ؟! هَذِهِ شَجرةُ تفتيشِ الريّ ، والريُّ حرٌّ مع المقاولِ » .

هُنَا ارتفعَ صوتُ زهرةَ قائلةً في تَحدٍّ : « أين المُقاولُ ؟ نُريدُ أَنْ نَتحدَّثَ مع المقاولِ » .



هَمسَ الشيخُ زيدان لنفسهِ :

« لقد أَدخلتُ نَفسِي في موضوعٍ كبيرٍ ، لا أَعرفُ له رأسًا من قدمين ، وفيه منشارٌ وإصاباتٌ ومسئوليةٌ » .

ثُمَّ وخزَ الحمارَ بكعبَيْهِ ، وواصلَ طريقَهُ مسرعًا إلى القريةِ .

* * *

وبعد دقائقَ ، وقبلَ أن يختارَ عمّ أحمدُ النشَّارُ خطوتَهُ التالية ، شاهدَ شيئًا غريبًا في الطريقِ القادمِ من القريةِ إلى المدرسةِ ، والَّذى اختفى مِنه الظلُّ بعد قطعِ أشجارِ الكافور الطويلةِ الضَّخمةِ الَّتى كَانَتْ تُظلِّلُهُ .

التفتَ النشَّارُ إلى صبيِّهِ ، وسَألَه وهُوَ يُشيرُ إلى مَجموعاتِ الناسِ التى تجرى وتُهَرْوِلُ بغَيْرِ نظامٍ فى الطريقِ : « ما الَّذى حَدثَ فى البلدِ ؟! » .

وفَتحَ أحمدُ النشَّارُ فَمَهُ بدهشةٍ ، وهُوَ يُردِّدُ غيرَ مُصدِّقٍ عَينَيْهِ : « كأنهم يطاردون أحدَ اللصوصِ أو القَتلَةِ !! » .

وبعدَ لحظاتٍ ، ظهرَ أنَّ بائعَ الذُّرةِ المَشويةِ ، الشَّيخَ زيدان ، هو الذى يقودُ جمهورَ القادمينَ وهو جالسٌ على حِمارِهِ ، ومِنْ خَلفِهِ يُهَرْوِلُ فى انزعاجٍ شديدٍ ، عددٌ كبيرٌ من الأمهاتِ والفتياتِ والرجالِ .

لقد ظنَّ النشَّارُ فى البدايةِ أنهم عشرةٌ أو عشرونَ ، لكنْ عندما اقتربَ المُتدافعونَ ، تضاعفتْ دهشتُهُ عندما تأكَّدَ أن عددَ القادمين أكبرُ من ذلِكَ بكثيرٍ !!

قال النشَّارُ فى انزعاجٍ شديدٍ : « ما الذى جاءَ بكلِّ أهلِ البلدِ ناحِيتَنا ؟ » .

* * *

واستمرَّتِ الشجرةُ العجوزُ فى حكايتِها ، قالَتْ : « والَّذى لم يَعرِفْهُ أحمدُ النشَّارُ ، وعرفْتُهُ أنا من حكاياتِ الصغارِ بعدئذٍ ، أنَّه ما إنْ دخلَ بائعُ الذُّرةِ المشويةِ أولَ دروبِ القريةِ ، وهو على حمارِهِ ، حتَّى صاحَ :

« أسرِعوا يا ناسُ ... أولادُكم يتَشاجرونَ مع رجالِ المقاولِ .. أسرِعوا قبلَ أَن يُصيبَ المِنشارُ أطفالَكم بأذى !! » .

وتَجمَّعَ الناسُ حولَ بائعِ الذرةِ ، الَّذى شَعرَ بأهميتِهِ وهُوَ يُلقِى هَذِهِ الأخبارَ المثيرةَ ، فعادَ يقولُ :

« المِنْشارُ فى الشّجرةِ .. والأطفالُ حولَ الشجرةِ .. سيقطعُ المِنْشارُ وسطَ واحدٍ من أطفالِكم !! » .

« وفى لحظاتٍ ، كَانَتْ شَائعاتُ المِنشارِ الَّذى « قَتلَ » الأطفالَ قَد مَلأَتِ البلدَ . وخَرجَ أفرادُ كلّ أسرةٍ لها أولادٌ فى المدرسةِ مع جِيرانِهم ، يُهَرْوِلونَ ، ليمنعوا الكارثةَ الّتى بَدأَتْ تَتضَخَّمُ !! » .

وظهرَ الشيخُ زيدان سعيدًا بدَوْرِ القائدِ ، فواصلَ صِياحَهُ بعباراتٍ مُثيرةٍ مُستفِزّةٍ : « أَنْجِدوا أولادَكم .. المِنْشارُ مَسنونٌ مثلَ السّيْفِ ! » .

وسَألَتِ السيدةُ أمُّ محمدين ، السيدةَ أمَّ دميانة ، وقد أَصبحَ لونُ وجهِها أصفرَ مِثلَ « الكُرْكُم » ، أثناءَ جَرْيِهما نَحْوَ المدرسةِ : « هل مَاتَ أحدُ الأطفالِ ؟ » .

قالَتْ أمُّ دميانة وهِيَ تصرخُ : « الشّيْخُ زَيدانُ يقولُ إنها عصابةٌ كبيرةٌ ! استُرْ يا ربُّ » .

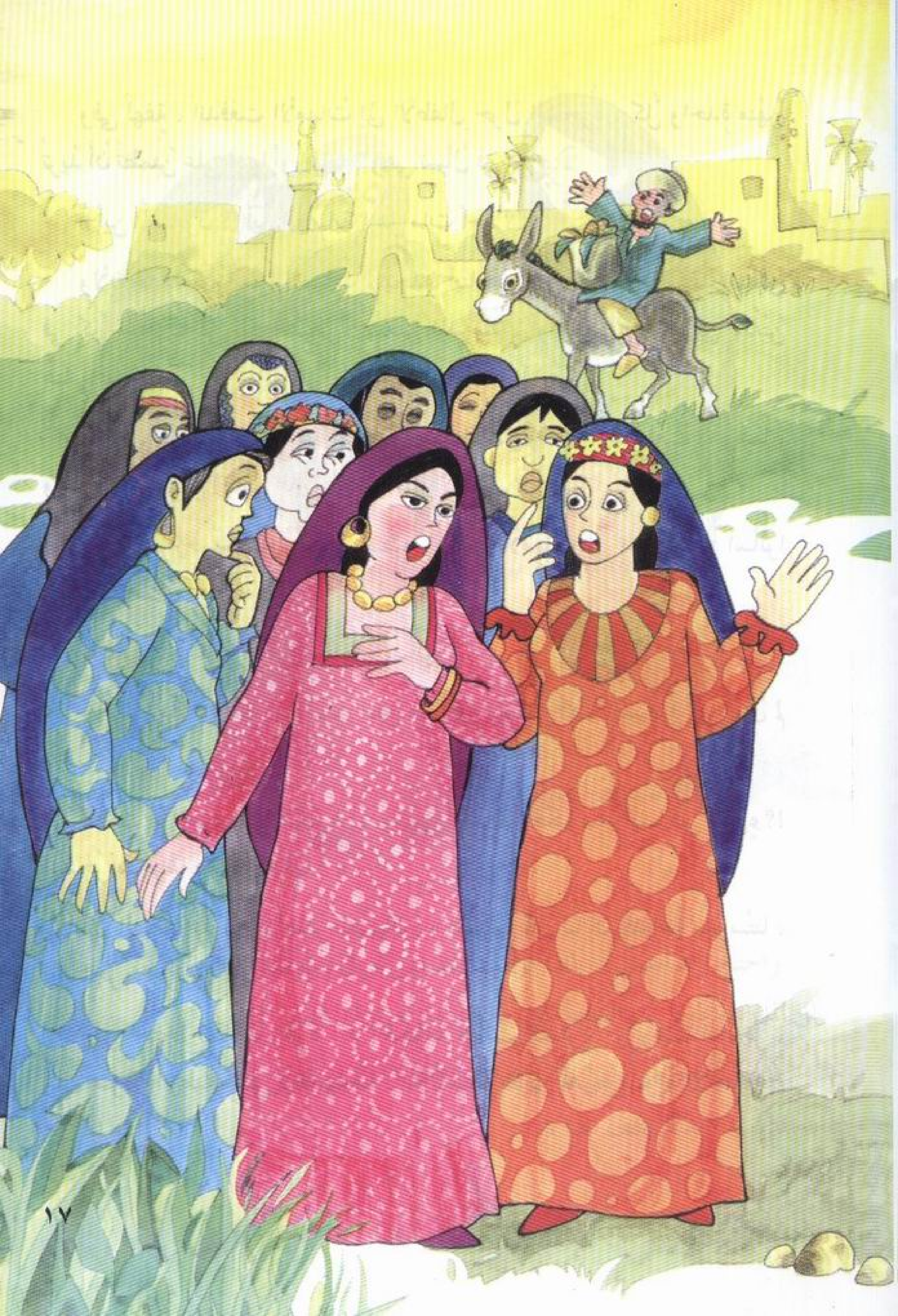
* * *

وهَمسَ الصبىُّ إلى عمِّ أحمدَ النشارِ ، وهُوَ يُشيرُ إلى سيدةٍ كَانَتْ تتقدَّمُ المجموعةَ الّتى تَقتربُ نَحْوَهما بسرعةٍ :

« هَذِه خالَتى أمُّ زَهرةَ ، أمُّ البنتِ الّتى تَتكلَّمُ قبلَ كلّ الصبيانِ !! أمُّ زَهرةَ هذه أشطرُ مَنْ يبيعُ ويَشترى المواشِىَ فى البلدِ ، وزوجُها يَعملُ فى الإماراتِ ! » .

* * *

وشاهدَتِ الأمهاتُ المِنْشارَ الرهيبَ فى الشجرةِ ، وكانَ هذا كافيًا لتأكيدِ كلّ حكاياتِ الشيخِ زيدان !



وفي لهفةٍ ، اندفعَتِ الأمهاتُ إلى الأطفالِ حولَ الشجرةِ ، كلٌّ واحدةٍ منهُنَّ تُريدُ أَنْ تطمئنَّ عَلَى ابنِها أو ابنتِها ، وهِيَ تَسألُ في فَزعٍ :

« أين المُصابونَ ؟! أين العصابةُ ؟ هل ماتَ أحدٌ ؟! » .

ولأن عددًا كبيرًا من الأمهاتِ لم يجدْنَ أبناءَهن حولَ الشجرةِ ، فقد اندفعْنَ في كلِّ اتجاهٍ يبحثنَ عن الصغارِ : دَخلْنَ المدرسةَ ، أو وقفْنَ في الطريقِ يَتلفَّتْنَ هنا وهناك .

ووقعَ نظرُ إحدى الأمهاتِ على عمِّ أحمدَ النشَّارِ وصبيِّهِ ، فاندفعَتْ نَحْوَهُما ، وصَاحَتْ : « أينَ اختفَى الذين أرادوا قَتْلَ الأطفالِ ؟ » .

ورفعَ عمُّ أحمدُ النشَّارُ وجهَهُ ببطءٍ ، وقالَ للأمهاتِ في سخطٍ : « اسألوا الأشقياءَ حَوْلَ الشجرةِ » .

وتقدَّمَتْ والدةُ زهرةَ إلى ابنتِها ، تسألُها .

قالَتْ زهرةُ في ثقةٍ : « الريُّ اتفقَ مع المُقاولِ علىَ قطعِ الشجرةِ ، والرّيُّ لم يَأخذْ رَأيَنا ! » .

قَالَتْ أُمٌّ أخرى في حَسرةٍ : « ومَتَى أَخذَتِ الحكومةُ رَأْيَنا في شَيْءٍ ؟! الشجرُ شَجرُهَا ، والمالُ مالُهَا ! » .

قَالَ الصغيرُ علواني ، أَصغرُ الصّبيانِ : « المُدرِّسُ قَالَ لنا إنَّ المدرسةَ مدرستُنا ، والشجرَ شَجرُنا !! » .

وفي احتجاجٍ قَالَتْ زهرةُ : « الحكومةُ عَملَتِ الشارعَ وزرعَتِ الشجرَ ، بمال ضريبةِ الأطيانِ الَّتِي تَأخذُهَا مِنَّا ... الأستاذُ شاكر مُدرِّسُ الموادِّ الاجتماعيةِ قَالَ لنا هَذَا !! » .



واحتَجَّ ولدٌ أسمرُ : « لماذا يتركونَ الشمسَ تحرقُ رؤوسَنا ؟! الطريقُ من البلدِ إلى المدرسةِ طويلٌ ، والشَّجرُ كانَ يحمينا من حرارةِ الشَّمْسِ !! » .

قَالَتْ أمُّ زهرةَ ، وهِيَ تتأمَّلُ هؤلاءِ الأطفالَ الَّذين كبروا أمامَها فى لحظاتٍ : « المدرسةُ لابدَّ أن تقفَ معنا » .

لَكِنَّ الأَطفالَ رفَضوا أَن يَتركوا الشجرةَ ، فاتَّجهَتِ الأمهاتُ ودخلْنَ المدرسةَ ، ومَعهُنَّ الفتاةُ زهرةُ ، الَّتِي اختارَهَا الأطفالُ ، بإجماعٍ صامتٍ ، لتنوبَ عَنهم مع أهلِ البلدِ .

ولم يَكنْ أَحدٌ قد لاحظَ أَنَّ بائعَ الذرةِ المشويةِ ، الشَّيخَ زيدان ، كانَ قَدِ اختفَى !

لكنْ في تِلْكَ اللحظةِ ، ظَهرَ بائعُ الذرةِ يَقتربُ ، يُرافِقُهُ شَخصٌ آخرُ ، يَركبُ أيضًا حمارًا ، ويَرفعُ شمسِيَّةً فَوْقَ رَأسِهِ .

ودَخلَ بائعُ الذرةِ المشويةِ مَعَ صاحبِ الشمسيةِ إلى فناءِ المدرسةِ .

* * *

وفي وسطِ حلقةٍ متزاحمةٍ من النساءِ ، وقفَ الأستاذُ شاكر مع أُمّ زهرةَ وابنتِها .

وشَقَّ بَائعُ الذرةِ المشويةِ الطريقَ أمامَ حاملِ الشمسيةِ ، حَتَّى وصلا إلى الأستاذِ شاكرٍ .

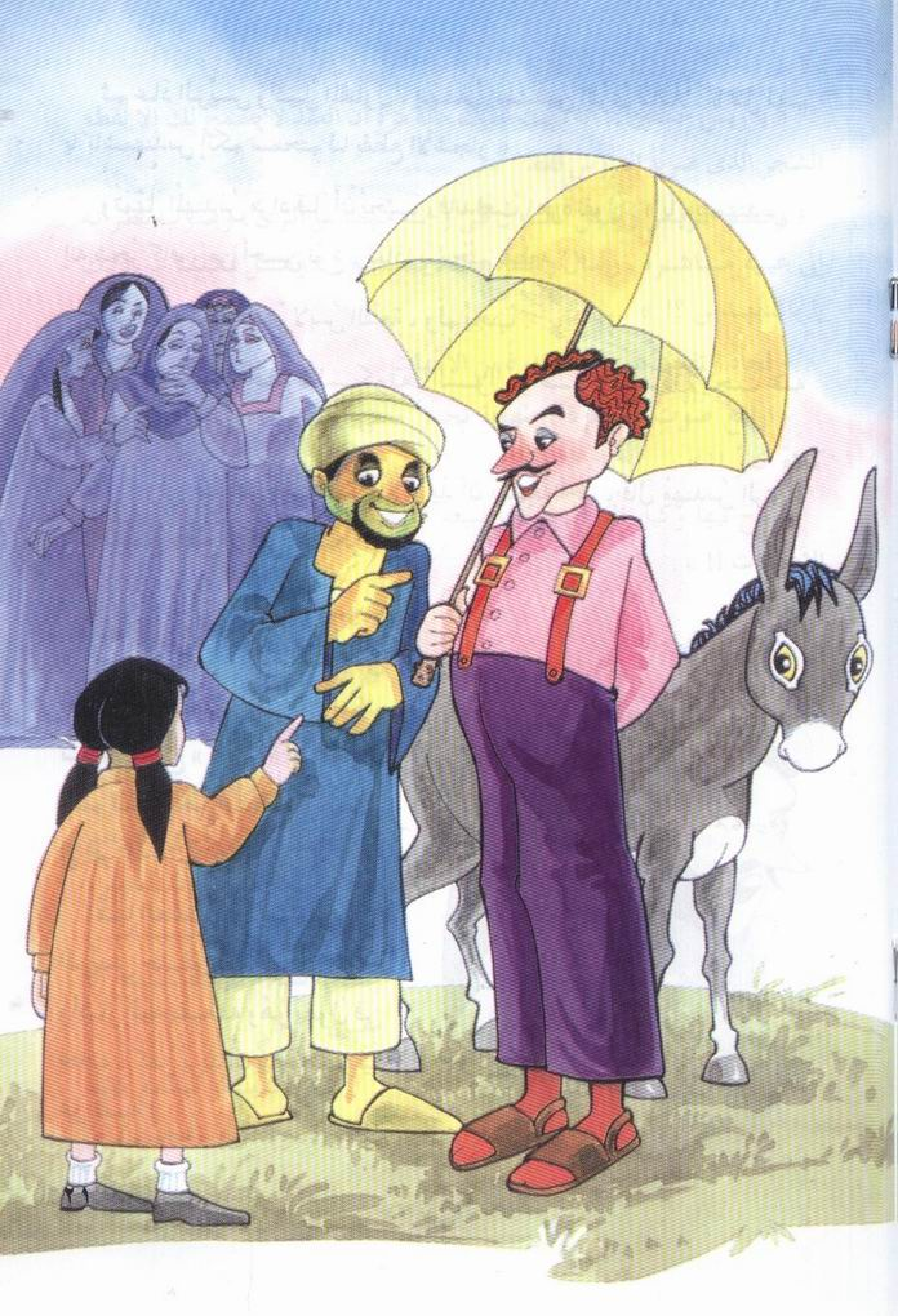
قَالَ حاملُ الشمسيةِ : « أَنا الرِّيس حسنين ، وكيلُ المقاولِ » .

وقبلَ أن يُكمِلَ حديثَهُ ، دَخلَ من بابِ المدرسةِ رجلٌ يَرتدى حُلَّةً أَنيقةً ، وعَلَى عَينَيْهِ نظارةٌ سوداءُ ، وفوقَ رأسِهِ قُبعةٌ من الفلِّينِ السَّميكِ تَحميهِ من حَرارةِ الشمسِ .

وتَقدَّمَ لابسُ القُبَّعةِ نَحْوَ المجموعةِ الواقفةِ وسطَ فناءِ المدرسةِ ، وفي الحالِ انفَسحَ لَهُ طريقٌ ، وصاحَ الرِّيسُ حسنين مُرحِّبًا :

« أهلاً يا باشمهندس مراد » .

ثم التفتَ إلى الواقفينَ يقولُ : « باشمهندس الريِّ » .



ثم عادَ الريِّسُ وكيلُ المُقاولِ ، يهتفُ بمهندسِ الرَّيِّ قائلاً : « قل لهم يا باشمهندس إنكم سَمحتم لنا بقطع الأشجارِ » .

وتَمَهَّلَ المُهندِسُ مراد قبلَ أنْ يُجيبَ ، فاندفعَتْ زَهرةُ تقولُ : « يا باشمهندس ، إنه شجرُ كافورٍ من أحسنِ نَوْعٍ ، لماذا سَمحْتُم بقَطْعِه ؟ » .

وتَردَّدَ مُهندِسُ الريِّ لابسُ القُبَّعةِ ، ولَم يُجِبْ .

واستغربَ الواقِفُونَ لسكوتِهِ : السؤالُ واضحٌ ، فلماذا لم يُجِبْ عنه ببساطةٍ وسرعةٍ ؟!

وفي صوتٍ خَافتٍ ، كَأَنَّهُ لا يُريدُ أَن يَسمعَهُ أحدٌ ، قَالَ مُهندِسُ الريِّ : « لم نسمحْ بقطعِ « كلِّ » الشجرِ!! » .



وفي الحالِ ، ارتفعَ صوتُ « الستِّ أمِّ زَهرة » ، تَسألُ في حِدَّةٍ : « تَقصدُ حضرتُكَ أنكم سمحْتُم بقَطْعِ « بعضِ » الأشجارِ ، ولم تَسمحوا بقطعِ « البعضِ الآخرِ ؟! » .

هُنا التفتَ مُهندِسُ الريِّ إلى الريِّسِ حسنين وكيلِ المُقاولِ ، وأشارَ إليه بقبعتِهِ وهُوَ يَقولُ في عتابٍ ، كمَنْ يُريدُ أَن يُبعِدَ المسئوليةَ عن نَفسِهِ :

« يا رَيِّسُ حسنين .. أنا نَبَّهْتُ عَليكَ مائةَ مرةٍ أَنَّ العقدَ لا يَسمحُ لَكَ إلا بقطعِ الشجرِ الَّذى ضَربَهُ السوسُ فَقط ! » .

ونَظرَ الريِّسُ وكيلُ المقاولِ فى وجهِ مُهندسِ الرىِّ ، وصوَّبَ نظراتِهِ إلى عَينَيْهِ مُباشرةً ، وقالَ وهُوَ يَكادُ يَصيحُ : « وهَل فعلْنا غيرَ ذَلكِ يا باشمُهندس ؟! » .

وفجأةً ارتفعَتْ همهماتٌ كثيرةٌ من الأُمَّهاتِ ...

وارتفعَ صَوْتُ أُمِّ زهرةَ ، بلهجةٍ تَحملُ مَعنى الاتهامِ : « هَذهِ حِكايةٌ فيها كلامٌ كَثيرٌ !! » .

صاحَ فيها وكيلُ المُقاولِ ، كأنما لَسعَهُ عَقربٌ : « عَيْبٌ يا ستّ ، لا تُصدِّقى الإشاعاتِ !! » .

ومن وسطِ الحشدِ ، صَاحَتْ أُمٌّ أُخرَى : « الآن فَهِمْنَا الملْعُوبَ !! » .

وللمرةِ الثانيةِ ، صَاحَ الريِّسُ وكيلُ المقاولِ ، وهُوَ يَتظاهرُ بالغضبِ الشديدِ : « أَقولُ عَيْبٌ يا سَيِّداتُ .. هَذا كلامٌ لا يَصِحُّ أن يُقالَ !! » .

وبغيرِ أَن يَنتظرَ ليسمعَ كلمةً أُخرَى ، تركَ حلقةَ المُتجمهرِين ،



وصاحَ : « مَعى يَا عــمُّ أحمـدُ يَا نشّارُ ، مَعِى يَا ولدُ يَا حمدانُ ... بَيْنَنا وبَينكم حضرةُ المُقـاوِلِ !! » .

وعندَما كانَ وكيلُ المقاولِ ينطلقُ فى الطريقِ ، خارجَ الحلقةِ ، اصطدمَتْ قدمُهُ بأحدِ جذوعِ الأشجارِ المقطوعةِ ، وسقطَ على الأرضِ ، فضحكَ الأطفالُ ، وقالَتْ زهرةُ فى سخريةٍ :

« سقطَ كما أسقطَ الأشجارَ !! » .

وكالعاصفةِ ، رَكِبَ الريِّسُ حسنين وكيلُ المُقاوِلِ ، حمارَهُ ، وأَسرعَ مُبتعِدًا فى الطريقِ الَّذِى أَصبحَ عاريًا من الأشجارِ . وخَلفَهُ أحمدُ النشَّارُ والصبِىُّ حمدانُ .

* * *

واســتدارَتْ مَجموعـةُ الأمهــاتِ يُتابعْـنَ « هـروبَ » وكيلِ المقــاولِ والعامِلَيْنِ !

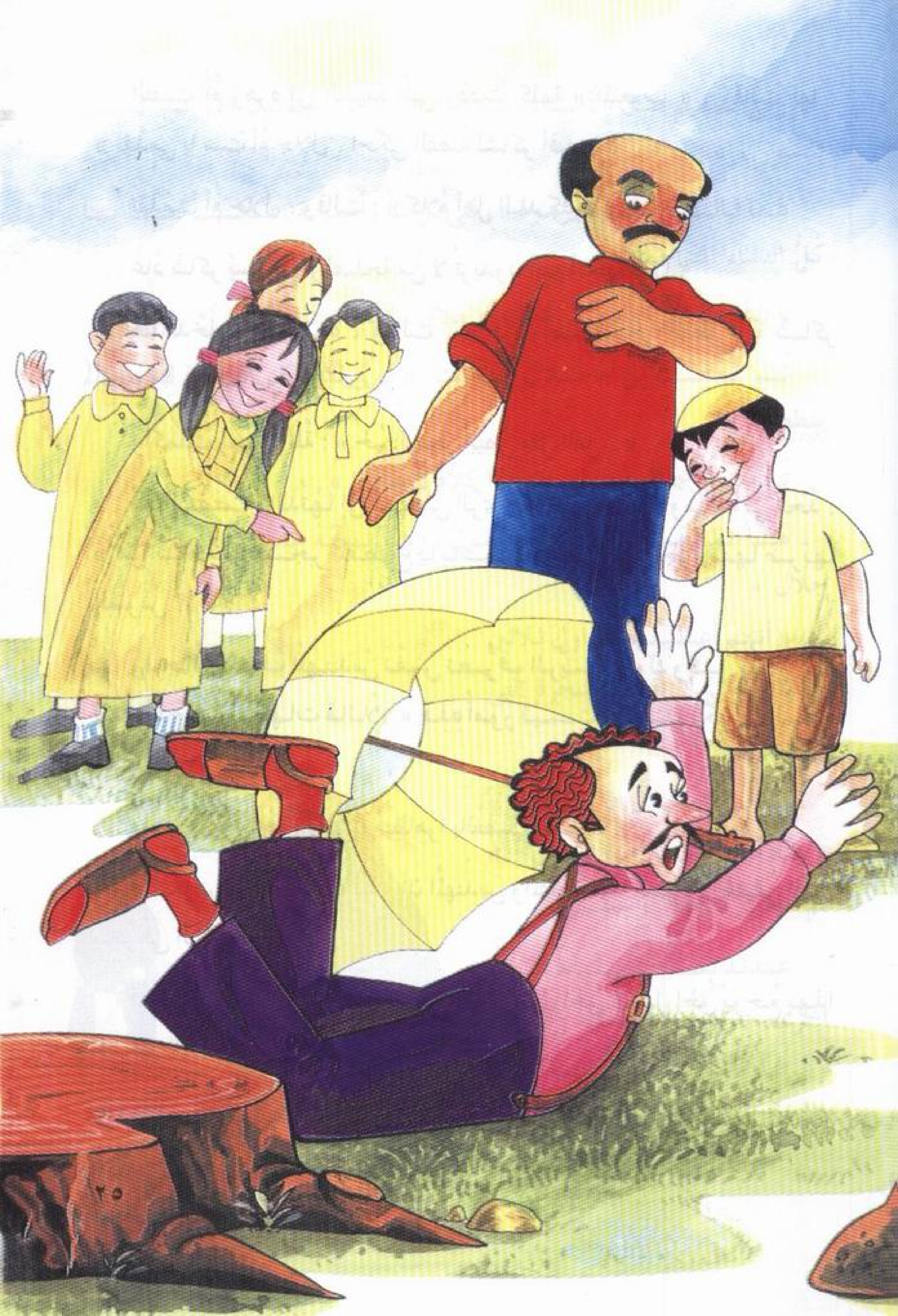
ولأوَّلِ مرَّةٍ ، وجَدَ الأَهَالِى مَجموعةَ الصِّبْيَةِ والفَتياتِ قَد تَركوا مَواقعَهم حَوْلَ الشجرةِ ، وَوقَفوا يُراقبونَ باهتمامٍ ابتعادَ النشّارِ وتَابعِهِ الصَّبِىِّ .

قَالَتْ زهرةُ بفَخْرٍ ، وكأَنَّها تُعلِنُ بَيانًا حَربيًّا :

« العمالُ مَشَوْا ، ووكيلُ المقاولِ مَشَى !! »

* * *

ووقـفَـتِ الأُمّـهـاتُ حَـوْلَ الأسـتاذِ شَـاكـر ، الـذى الـتـفتَ إلى السـيـدةِ أمِّ زهرةَ ، وقَـالَ كـأنَّـهُ يقـرأ أفكـارَهـا : « مَـاذَا كُـنْـتِ تَـقـصـدينَ بـأنَّ الموضـوعَ فـيه كلامٌ كَثيرٌ ؟! » .



التفتَتْ أُمُّ زَهرةَ إلى السيِّدةِ الَّتى ردَّدَتْ كلمةَ « الملعوبِ » ، وقالَتْ لَها : « تَقدَّمِي يا ستّ أمَّ جلال ، احكِى القصةَ لشاكر أفندى » .

تَقدَّمَتْ أمُّ جلال ، وقَالَتْ : « كلامُ أهلِ البلدِ كثيرٌ !! » .

عَادَ شَاكر يَسألُهَا : ولمصلحةِ مَنْ لا تُريدونَ أنتم أن تتكلَّموا ؟

هُنَا تدخَّلَتْ أمُّ زَهـرةَ ، وقَالَتْ : « هَل رأَيْتَ الشجرَ المَقطوعَ يَا شَـاكر أفندى ؟ هَل فيه سُوسٌ ؟! » .

وأَكملَتْ زَهرةُ قَائلةً : « لحمُ الشجرِ أَبيضُ مثلُ الفلِّ ! » .

هُنَا التفَتَتْ والدتُهَا إلى مُهندسِ الرَّىِّ صَاحِبِ القُبَّعةِ ، وسَألَتْه فى تَحَدٍّ : « هَل شَاهدْتَ الشَّجَرَ المَقطوعَ يا باشمهندس ؟! كَم شَجرةً منها ضَربَها السوسُ ؟! » .

وفجأةً تَصرَّفَ المُهندسُ نَفْسَ تَصرُّفِ الريِّسِ مبروك وكيلِ المُقاولِ .. لقد صَاحَ فى الأُمَّهاتِ قَائلاً : « هَذِهِ أُمورٌ لَيْسَتْ مِن شُئونِكُنَّ !! السلامُ عَليكم » .

وأَسرعَ يَهربُ هُوَ الآخرُ ، مُتظاهِرًا بالغَضَبِ الشَّديدِ !!

قالَتْ زهرةُ فى جُرْأةٍ : « يبدو أن المُهندِسَ والمقاولَ هما السوسُ الحقيقِيُّ الذى ينخرُ فى الشجرِ !! » .

قَالَتْ أُمُّ زَهرةَ : « لِماذَا يغضَبونَ من قَوْلِ الحقِّ ؟! هَلِ الحقُّ يُوجِعُ بهذَا الشكلِ ؟! » .

وقَالَتْ أُمٌّ أُخرَى : « بَل هُم يخافونَ من انكشافِ المَستورِ !! » .

وفِى تصميمٍ قالَ الأستاذُ شَاكر : « ولماذا تخافون أنتم من كشفِ المَستورِ ! » .

هُنَا قالَتِ « الستُّ أمُّ زهرةَ » ، فى نبراتٍ واضحةٍ ، سَكتَتْ لسماعِهَا كُلُّ النساءِ المُتزاحماتِ :

« الشَّجرةُ الَّتِى أمامَ بَيْتِ السّتّ أُمّ جلال ، لم يَقطعوهَا ! » .

ثُمَّ التَفتَتْ إلى أمِّ جلالٍ وقَالَتْ : « قولى لشاكر أفندى لِماذَا لم يَقطعوهَا » .

تَردَّدَتْ أُمُّ جلال ، وقَالَتْ : «هَذا كلامٌ لاَ يُقالُ ! » .

هُنَا اندفعَتِ الفتاةُ زهرةُ تَقولُ ، وهِيَ تُوجِّهُ حَدِيثَها إلى « الستّ أُمّ جلال » :

« أَنتم أَعطَيْتُمُ المُقاوِلَ ثلاثينَ جنيهًا ، لكى لا يقطعَ الشجرةَ الَّتى أمامَ بَيْتِكم !! » .

صاحَتْ أمُّ جلال فى استنكارٍ : « هذه أمورٌ يتحدَّثُ فيها الرجالُ ..» ثم قطعَتْ كلامَها ، وسكتَتْ !!

عِندئذٍ تَقدَّمَتْ سَيدةٌ شَابَّةٌ أُخرَى ، تَحملُ على كَتِفِها رضيعًا . وعَرفَها الأستاذُ شَاكر . إنَّها والدةُ الصغيرِ عَلوانى .



لقد سَافَرَ زَوْجُها أيضًا للعملِ خارجَ مصرَ ، فافتتحَتْ مَحلاً تِجاريًّا صَغِيرًا ، تَبيعُ فيه الأدواتِ الكهربائيةَ لأهلِ القريةِ .

قَالَتْ أمُّ الصَّغيرِ عِلواني : « أَنا أَعطَيْتُ الرّيِّسَ حسنين وكيلَ المُقاولِ ، خَمسينَ جُنيهًا ، لِكَيْ لا يَقطعَ الشَّجرةَ الَّتي تُظلِّلُ عَلَى دُكَانِي ! » .

سَأَلَ الأستاذُ شَاكر : « كيف تُقدِّمون كلَّ هذه المبالغِ ، بهذه السهولةِ ، لوكيلِ المُقاولِ ؟! » .

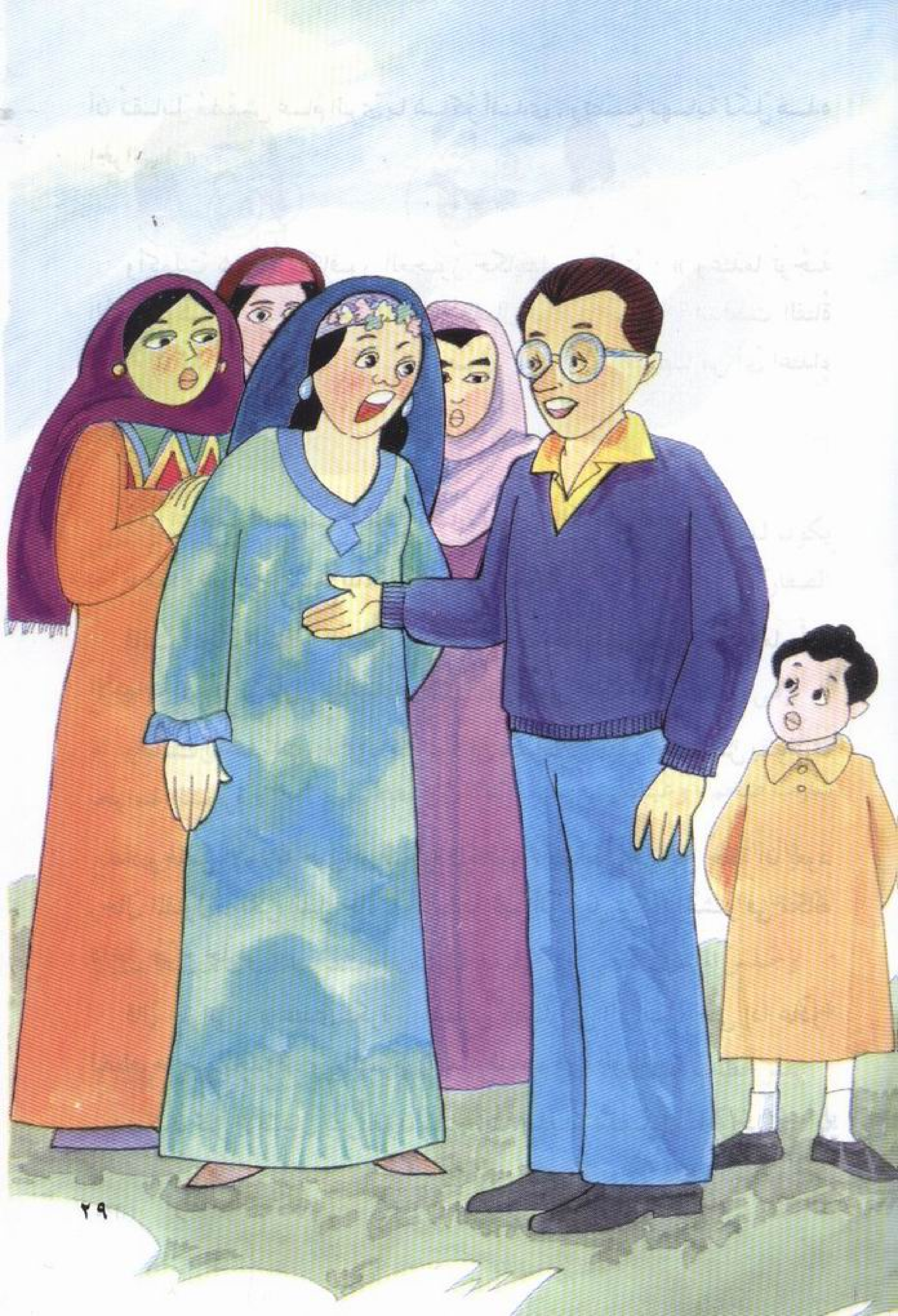
قَالَتِ الستُّ أُمُّ عِلواني : « قَالوا لنا إن الحكومةَ سَمحَتْ لَهم بقطعِ أيةِ شجرةٍ يَختارونَها . لم نَسمعْ أبدًا بحكايةِ الشجرِ الّذي به سوسٌ . كُنَّا نظنُّ أَنَّ مِنْ حقِّ المُقاولِ أن يَختارَ الشجرةَ الَّتي يَقطعُهَا ، والشَّجرةَ الَّتي لا يَقطعُهَا ... » .

قَالَ الأستاذُ شَاكر : « ولَكنْ ما فَعلْتُموه حرامٌ .. هَذِهِ رِشْوَةٌ !! » .

صَاحَتِ « الستُّ أُمُّ علواني » في غَضَبٍ وثورةٍ : « ومَا اسمُ هَذَا الّذي فَعلَهُ المُقاولَ ؟! غشٌّ ؟! سرقةٌ ؟! قَتلٌ ؟! أن يَقطعَ شجرًا قويًّا سليمًا ؟! مَاذا تُسمِّي هَذَا يَا شاكر أفندي ؟! أن يقطعَ شجرًا لَيْسَ به سوسٌ وسليمًا مائةً في المائةِ .. ماذا تُسمِّي هذا ؟! '

واحتدَّتِ « الستُّ أُمُّ زهرةَ » وهِيَ تَقولُ : « ومراد أفندي ، مُهندِسُ الرّيِّ ، جالسٌ في مكتبِهِ ، يلعبُ بقبعتِهِ ونظارتِهِ السوداءِ ، ولا يمرُّ ليعرفَ هل يقطعُ المُقاولُ الشجرَ السليمَ أم غيرَ السليمِ !! هل هذا إهمالٌ أم كسلٌ أم شَيْءٌ مقصودٌ ؟! » .

وأضافَتْ أُمُّ زهرةَ : « لَن نَسمحَ بقطعِ أيةِ شَجرةٍ أُخرى بعدَ الآنَ .. لابدَّ



أَن تُقابِلَ مُفتّشَ عامّ الريّ يا شاكرُ أفندى ، وتضعَ نهايةً لكُلّ هذه الجرائمِ ! » .

* * *

وأكملَتْ شجرةُ الكافورِ العجوزُ حكايتَها .. قالَتْ : « وعِندَما توَجَّهَ الأستاذُ شاكر معَ الأمهاتِ إلى الأطفالِ المُلْتَفّينَ حولى ، اندفعَتِ الفتاةُ زَهرةُ تؤكّدُ فى تصميمٍ : سَنبقَى حَوْلَ الشجرةِ ، نَحميها من أىّ اعتداءٍ جديدٍ » .

* * *

وفى إعجابٍ قالَتْ شجرةُ الظلّ الشابةُ لشجرةِ الكافورِ العجوزِ :

« هذا وفاءٌ مثلُ وفاءِ الأبناءِ للأمهاتِ والآباءِ » .

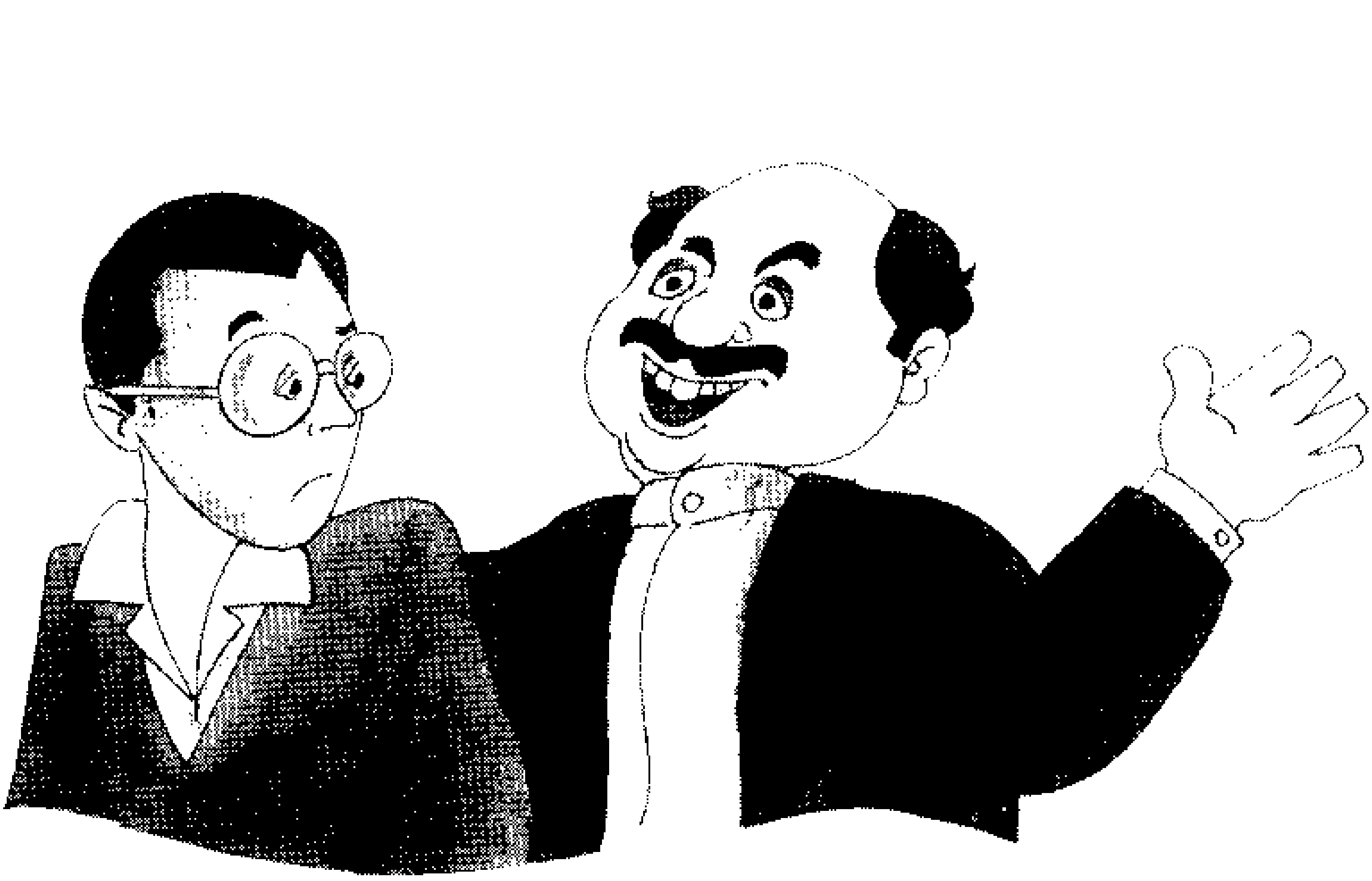
قالَتْ شجرةُ الكافورِ العجوزُ : « لقد شعرْتُ حقًّا أنهم أبنائى . وعندما رأَتِ الأمهاتُ إصرارَ الأطفالِ ، قَالَتْ أُمُّ جلالٍ : « سَأبقَى مَعَكم » .

وقَالَتْ أُمُّ علوانى : « وأَنا سَأعودُ إلى القريةِ ، أُحضِرُ طعامًا لمن يقومونَ بحراسةِ الشجرةِ » .

« وجَلسَ الأولادُ حولى أنا شجرةِ الكافورِ ، يَتوقَّعونَ فى كلّ لحظةٍ أَن يَعودَ رجالُ المقاولِ ، لكنّ الليلَ جاءَ ، ولم يظهرْ لهم أَثرٌ ، بل تَركوا المِنْشارَ فى مَكانِهِ داخلَ جُرْحِ جِذْعى » .

قالَ علوانى : « عِندى فكرةٌ .. سندفنُ المِنْشارَ فى التُّرابِ ، حتى إذا عادوا ليقطعوها ، لن يَجِدوهُ ، وبذلك نكونُ قد عطَّلْناهم فترةً طويلةً » .

« كانَ كلُّ الأطفالِ يتوقَّعونَ مُفاجَآتٍ جديدةً ، فقد اعتادوا دائمًا أن



يكونَ لدى الكبارِ من الوسائلِ ما يَستطيعونَ به فَرْضَ إرادتِهم أخيرًا عَلَى الصغارِ !! » .

* * *

وفى مساءِ ذَلِكَ اليَوْمِ ، فوجئَ الأستاذُ شاكر، فى منزلِه ، بزيارةٍ لم يكُنْ يَتوقَّعُها . سَمعَ طرقًا على البابِ . وعِندَما فتحَهُ ، وجَدَ رجلاً مُمتلِئَ الجِسْمِ ، له شاربٌ ضخمٌ ، وعينانِ يشعُّ منهما الذكاءُ والدَّهاءُ .

قالَ الزائرُ صاحبُ الشاربِ الضخمِ : « أَنا محروس سيد على .. مُقاوِلُ قَطْعِ الأشجارِ » .

وجَلسَ المقاولُ عَلَى أولِ مَقْعَدٍ قابلَهُ ، وجَلسَ بالقُربِ منه الأستاذُ شَاكر .

بعدَ لحظاتِ صمتٍ ، قَالَ المُقاوِلُ : « لِماذَا لم تَجئْ إلَيَّ ، لنتفاهمَ بهدوءٍ يا أستاذُ شاكر ؟! » .

قالَ الأستاذُ شاكر فى هدوءٍ مُماثِلٍ : « أنا لم أتشرّفْ بمعرفةِ سيادتِك مِنْ قَبْلُ ، وليسَتْ لِى علاقةٌ بأىِّ موضوعٍ يخصُّكَ لكى أتفاهمَ مَعَكَ بشأنِهِ !! » .

قالَ المُقاوِلُ : « يا أستاذُ شاكر .. لِنَكُنْ صُرحاءَ .. البلدُ كُلُّها تَعرفُ أنك أنتَ المُدرِّسُ الَّذى حَرّضَ الأطفالَ عَلَى تصرُّفِهم الَّذى قاموا به » .

قالَ الأستاذُ شاكر : « غيرُ صحيحٍ .. الأولادُ هم الذين جاءوا إلَىَّ ، يشتكونَ من قَطْعِ الأشجارِ . وكلُّ ما طلبوه منّى ، أن أُبعِدَ عنهم الناظرَ وبقيةَ المدرسين ، لكى لا يَمنعوهم من تَنفيذِ خِطَّتِهم فى حمايةِ الشجرةِ بأجسامِهم !! » .

قالَ المُقاوِلُ : « ماذا سَتستفيدُ أَنتَ أو المدرسةُ من دُخولِى السجنَ ؟! » .

قالَ الأستاذَ شاكر : ' إذا سكتُّ أنا ، فَلن يَسكتَ أهلُ البلدِ » .

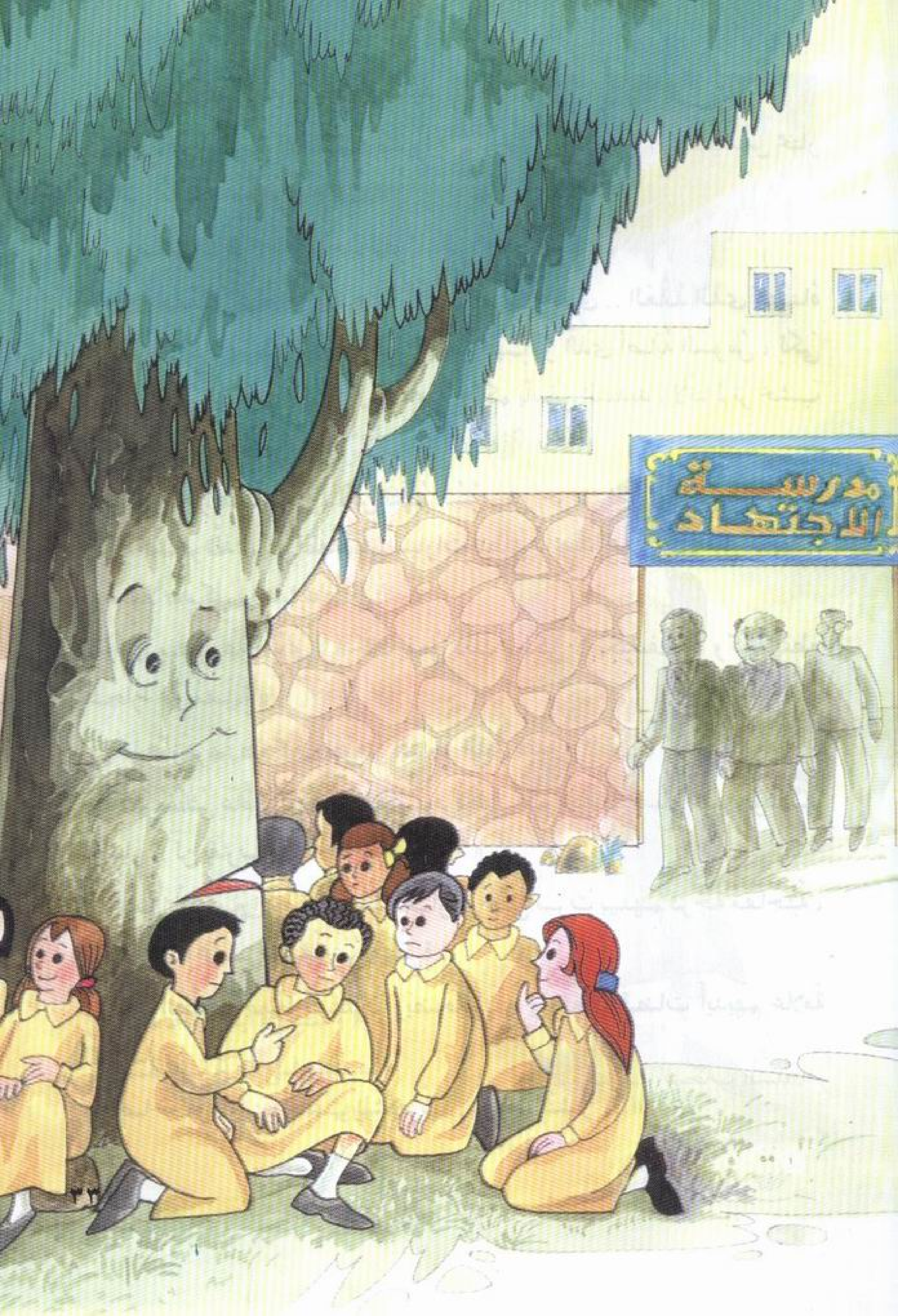
قَالَ المُقاوِلُ : « لم أكنْ أَعرفُ شيئًا عن المبالغِ الَّتى أَخذَهَا وكيلِى من أهلِ البلدِ . لقد أَعادَ إليهم بعدَ ظهرِ اليومِ ، كلَّ النقودِ الَّتى أَخذَها مِنهم » .

قَالَ الأستاذُ شاكر ، وهُوَ يُحاوِلُ أن يكتمَ غَيْظَهُ من تظاهُرِ المقاولِ بالبراءةِ : « ومَنْ سَيُعيدُ الحياةَ إلى الشجرِ المقطوعِ ؟! » .

قالَ المُقاوِلُ ، وقد ظهرَ له واضحًا تصميمُ الأستاذِ شاكر على الاستمرارِ فى الوقوفِ إلى جانبِ أهلِ البلدِ : « لابُدَّ أن نجدَ حلاًّ مع مُفتّشٍ عامِّ الرّىِّ » .

* * *

وفى صباحِ اليَوْمِ التّالى ، شَاهدَ الأطفالُ الّذين ظلُّوا يُحيطونَ بالشجرةِ ، ثلاثةَ رجالٍ يَخرجون من بابِ المدرسةِ ، يَتقدَّمُهم حضرةُ الناظرِ ، ومعه الأستاذُ شاكر المُدرِّسُ ، يَتوسَّطُهُمَا رجلٌ ضخمُ الجسمِ ، تبدو عليه مظاهرُ أصحابِ السُّلطةِ ، واتجهوا ناحِيَةَ الأطفالِ .


مدرسة
الاجتهاد

وتَطلَّعَ إليهم الأطفالُ باهتمامٍ شديدٍ ..

قالَ ناظرُ المدرسةِ للأطفالِ ، مُشيرًا إلى الرجلِ الغَريبِ : « الباشمهندس مختار عمران ، مُفتّشُ عامُّ الرَّىِّ » .

وأضافَ الناظرُ : « لقد جاءَ ليقولَ لكم أخبارًا مُهِمّةً » .

قَالَ مُفتّشُ عامُّ الرّىِّ : « أَنا أشكرُكم يَا أولادى .. العَقْدُ الذى كتبْناهُ مع المقاولِ ، لا يسمحُ لَهُ إلا بقطعِ الشجرِ الميتِ أو الّذى أصابَهُ السوسُ ، لِكَى لا يَقعَ فيقتلَ الناسَ والمواشى . وأَنا أُصرِّحُ لكم بأسفى الشديدِ ، لأنّنا لم نَرَ خشبَ الشجرِ الّذى تمّ قَطعُهُ » .

قَالَ الناظرُ : « ونَحنُ لم نكُنْ نَفهمُ السِّرَّ ، فى حرصِ المقاولِ عَلَى سُرعةِ نَقْلِ أجزاءِ الشجرِ الّذى يَتمُّ قَطعُهُ ، فى سياراتٍ تَنطلقُ به بعيدًا عن البلدِ ، قبل أَن يُعطِىَ الوقتَ لأحدٍ كى يَراها ! » .

قالَ مفتشُ عامُّ الرَّىِّ : « كَانَ يَفعلُ ذَلِكَ ، لكى لا نكتشفَ أن وكيلَهُ يَقطعُ أشجارًا غيرَ مُصابةٍ » .

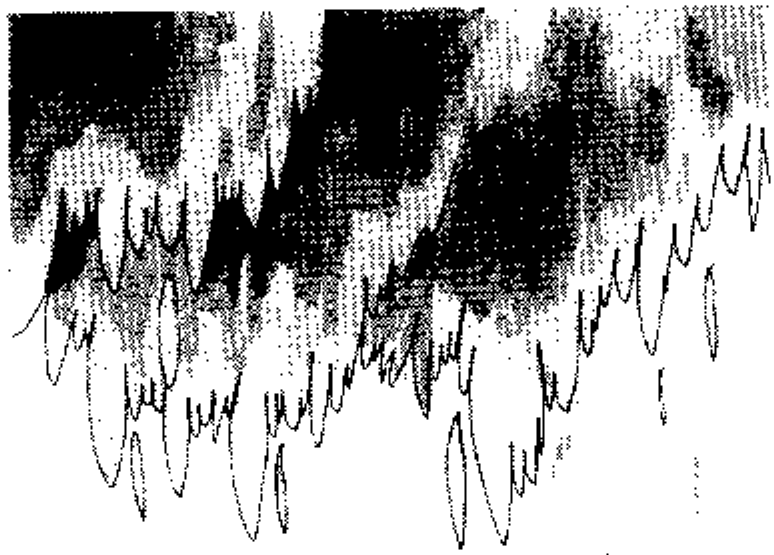
قَالَتْ زهرةُ : « وكيف نُعَوِّضُ الشجرَ الّذى فقَدْناهُ ؟! » .

قالَ مُفتّشُ عامُّ الرَّىِّ : « هَذه الشجرةُ الّتى أمامَ بابِ المدرسةِ .. لن يعودَ إليها المِنْشارَ .. لن يَقتربَ منها أحدٌ بعدَ اليوم !! » .

وما إنْ سَمِعَ الأطفالُ هَذِه العبارةَ ، حَتّى سرَتْ بينهم فَرحةٌ مُفاجئةٌ ، وكأنما هَبّتْ عَليهم عَاصفةٌ غَيْرُ مُنتظَرةٍ ..

لقد انطلَقوا جَميعًا يُصفّقونَ ويَضحكونَ ، ويَرفعونَ قَبضاتِ أَيديهم علامةَ الانتصارِ !!

صَاحَتْ زهرةُ : « عَاشَتِ الشجرةُ ... يسقطُ المِنْشارُ !! » .





ورَدَّدَ الأطفالُ كلماتِهَا ، وهم يَضحكونَ ويَهتفون : « عَاشَتِ الشجرةُ !! » .

* * *

وأضَافَ مُفتّشُ عَامّ الرّىّ :

« وتفتيشُ الرّىّ يزرعُ الآن فعلاً ، ثمانمائةِ شتلةِ أشجارِ سريعةِ النُّمُوّ ، من أشجارِ الظّلّ ، فى كلّ طُرُقِ القريةِ ، وفى الطُّرُقِ المُؤدّيَةِ إليها ، خاصةً الطُّرُقَ التى قطعَ المُقاولُ أشجارَها . بل أيضًا فى الطُّرُقِ التى لم يكنْ بها أشجارٌ من قَبْلُ » .

وارتفعَتْ عَاصِفةٌ ثانيةٌ من التّصفيقِ والهُتافِ ، استمرَّتْ طَويلاً .

وبعدَ أَن هَدأَتْ قليلاً ، قالَ المفتشُ العام :

« وسنقومُ أيضًا بمحاسَبةِ مَنْ أهملوا فى مُراقَبةِ المُقاولِ ورجالِه !! » .

هنَا عَادَتْ شَجرةُ الكافورِ تَهزُّ أَغصانَهَا ، تَحتضنُ بها شجرةَ الظلِّ وهى تُضيفُ قائلةً :

« ولعلَّكِ يا شجرةَ الظلِّ الشابةَ ، لا تذكرينَ كَيف كَانَ مَولدُكِ . لقد كُنْتِ شَتلةً صَغيرةً ، يُمكنُ أَن يَأكلَكِ مَاعزٌ ، أو تُحطّمَكِ حوافرُ بقرةٍ ، أو يَقضِيَ عَليكِ العطشُ وعدمُ العنايةِ » .

وأَضافَتْ شَجرةُ الكافورِ العَجوزُ :

« لَكنْ بعدَ شُهورٍ ، كَانَ الزائرُ يُشاهدُ ، فى مُعظَمِ طُرُقاتِ القريةِ ، قِبابًا صَغيرةً ، بها فتحاتٌ تَسمحُ بدخولِ الهواءِ والشَّمسِ إلى شتلاتِ الأشجارِ ، الَّتى تَمَّتْ زراعَتُهَا فى كلِّ مكانٍ ... وكُنْتِ أنتِ مِنْ بَيْنِها » .

وفى تأكيدٍ ، أَضافَتْ شَجرةُ الكافورِ ، بصوتِهَا العميقِ الهادئِ الواثقِ :

« أطفالُ القريةِ ، تقودهم زهرة ، هم الَّذينَ تَحمَّلوا مَسئوليةَ ريِّ هَذِهِ الأشجارِ بالماءِ ، وتَسميدِهَا ، وتَنظيفِ مَا حولَها ، ومنعِ الحيواناتِ من الاقترابِ منها ، وبناءِ تِلكَ القبابِ حولَها لحمايتِهَا » .

وخَتمَتْ شجرةُ الكافورِ حِكايَتَها قائلةً :

« ولولا عِنايةُ الأطفالِ المُستمِرَّةُ بكِ وبأخواتِكِ ، لما استطعْتِ أن تجدى فرصةً للحياةِ أو النمُوِّ » .

« أمَّا الصبىُّ حمدان ، فقدِ التحقَ بالمدرسةِ ، يُريدُ أن يتعلَّمَ ، لكى يفهمَ اللعبةَ التى لعبَها فريقُ زهرةَ ! » .

* * *



والآنَ ، وقد مضَتْ سنواتٌ على هَذَا الَّذى حَدثَ ، نُشاهدُ أمامَ بابِ « مدرسة الاجتهاد » ، في قريةِ « البَياضِيَّة » ، بمحافظةِ المنيا ، بصعيدِ مصرَ ، شجرةَ كافورٍ عِملاقةً ، يَظهرُ في جِذعِهَا أَثرٌ واضحٌ لمنشارٍ ، وبجوارِها بقَايا جِذعٍ ضَخمٍ ، لأختِهَا الَّتى تمَّ قَطعُها غدرًا .

لَكنْ يوجَدُ أيضًا إلى جوارِهما ، وعلَى طُولِ الطريقِ إلى القريةِ ، صفٌّ طويلٌ من أشجارٍ حَديثةٍ ، تَنشرُ الظلَّ والهواءَ الرطبَ على تلاميذِ المدرسةِ ، وَهُم يلعبونَ تحتَها ، أو وَهُم قَادمون مِن بيوتِهم ، أو عائدونَ مِن المدرسةِ .



نقترح عليك أن تشترك فى أحد أو كل الأنشطة التالية :

١ - ما الذى أعجبك فى شخصية زهرة ؟ اذكر بعض مواقف القصة التى تعرفت من خلالها على أهم ما يميز زهرة .

٢- « كانت والدة زهرة قدوة لابنتها » - اشرح هذه العبارة .

٣- تخيل أنك وضعت نفسك موضع الشجرة العجوز ، فماذا كنت تقول للأطفال ، وأنت تراهم يقومون برى شتلات الأشجار الصغيرة ، وتسميدها ، وبناء القباب حولها لحمايتها ؟

٤- وقفت زهرة تلقى كلمة فى احتفال أقامته مدرستها ، ابتهاجًا بنجاحها مع زملائها الأطفال فى حماية الشجرة ومنع قطعها ، فما الذى تقوله زهرة ؟

٥- هناك رأى يقول ، إن الأشجار تحس وتفرح وتتألم . تخيل نفسك شجرة تعبر عن سعادتها ، وهى ترى الأطفال يلعبون فى الظل الذى تمنحه حماية لهم من حرارة الشمس ، فماذا تقول ؟